تمهيد:

تفسير القرآن بالقرآن- تأصيل(*) وبيان:

القرآن الكريم نور واحد صادر عن نور السموات والارض وعندما تنزّل من عند الله جعله-تعالى- في لباس الألفاظ ليظهره في مرتبة الوجود المحسوس بعد أن كان في عالم الغيب. ومن هناك كانت الألفاظ حجاباً على هذا النور إلاّ ان ظهوره ونوريته مازالت تتلألأ من خلال حجابه اللفظي.

ولغرض إزالة الغموض أو اللبس الناتج عن طبيعة اللغة في أجواء بعض مقامات القرآن ومقالاته أعطانا الرجل القرآني أمير المؤمنين علي (ع) مفتاح ذلك بقوله عن حقيقة هذا المنهج: ((ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض. لا يختلف في الله))[١]. ويقصد بكلامه المقدّس أنّ ((القرآن يشرح بعضه بعضاً، وبعضه يهدي الى بعض، وبعض يزيل اللبس عن بعض، والقرآن في دلالته كما في أحكامه كلّ لايتجزأ))[٢].

وهذا المنهج التفسيري يمتلك أصالة ناتجة عن قدرة القرآن على بيان ذاته دفعت بعض المفسرين الى الاعتراف به، وممّن صرّح بذلك الزمخشري إذ أكّدأنّ صحة التفسير وسلامته تتوقف على الأدلة القرآنيّة، قال: ((أسدّ المعاني مادلّ عليه القرآن..))[٣] وأشار ابن طاووس الى البيان العالي للقرآن في إيضاح نفسه ’وأ شار

---

[١] شرح نهج البلاغة- محمد عبدة:١٧/٢.

[٢] وعي القرآن- محمد مهدي الآصفي :١٩-٢٠ .

[٣] الكشاف : ١٩٣/٢. وينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه- مصطفى الصّاوي ١٥٧.

(*) للاطلاع على الدور الأساس.ينظر: المنهج الأثري في تفسير القرآن الكريم- حقيقته ومصادره وتطبيقاته هدى جاسم محمد:٦٥ وما بعدها.

الى قدرته على صيانة التفسير من الرأي الذّاتيّ.قال: ((تفسير القرآن بعضه ببعض أوضح واحوط في العقل والنقل))[١].

ويرى ابن كثير ان هذا المنهج ينبغي ان يقدم على غيره من المناهج ويعطى الاولوية في التفسير، قال: ((والقران يفسر بعضه بعضاً، وهذا اولى ما يفسر به))[٢].

وممن انتهج هذا المنهج محمد باقر الصدر وبين مرجعية القران في التفسير وعظمته في عصمة التفسير من النظريات البعيدة عن القران. قال ((ان يحاول- المفسر- الى اكبر درجة ممكنة الاندماج في القران، ونقصد بالاندماج في القران ان يدرس النص القراني ويستوحي من معناه دون تقييد مسبق باتجاه معين غير مستوحى من القران نفسه..))[٣].

واكد الطباطبائي ان القران غني عما سواه في بيان إذا معانيه ما كان في مقام الاحتجاج، لانه حجة بينة ((ومثل هذا الكتاب لو احتاج في بيان مقاصده إلى شيء آخر لم تتم به الحجة ... وبعبارة اخرى لا يكفي ان يكون النبي رافعاً للاختلافات القرآنية بدون شاهد لفظي من نفس القران لمن لا يعتقد بنبوته وعظمته..))[٤]

فإذا كان القران مرجعاً تفسيرياً، فينبغي إن لا يفسر منفصلاً عن بعضه وانما من خلال وحدته البيانية ((ففي كثير من الأحيان يكون للآية مفهوم- إذا فسرت منفردة- يختلف كل الاختلاف عن مفهومها إذا ما وضعت إلى جنب الآيات المشابهة لها في المضمون))[٥]

---

[١] سعد السعود للنفوس- علي بن موسى بن طاووس: ٤٠٤.

[٢] تفسير القران العظيم- اسماعيل بن كثير: ٢٤٦/٣

[٣] المدرسة القرانية: محمد باقر الصدر:٣١٢

[٤] القران في الاسلام- محمد حسين الطباطبائي: ٦٦-٦٧ وينظر: الطباطبائي ومنهجه في تفسير الميزان- د.علي الاوسي: ١٢٨.

[٥] معرفة القران- مرتضى المطهري- ترجمة جعفر الخليلي:٣٤ .

ولعل من الدراسات المفيدة ما قدمه العالم الياباني (ايزوتسو) حيث عرض نظرية ترابط المعارف القرآنية على أساس معرفة المعنى، وتوصل الى ان كلمات القران تؤلف مجاميع تترابط فيما بينها من طرق مختلفة لتكون في نهاية المطاف كلاً منتظماً ومنسقاً وتؤلف شبكة فائقة التعقيد))[1].

يتضح من المواقف المتقدمة ان بعض المفسرين افاد من القران في تفسيره،لأنه يتصف بصفتين تؤهلانه الى ان يكون مرجعاً تفسيرياً،هما:

الاولى: البيانية الذاتية الكلية التي تدفع عن مضامينه- بعد التدبر فيه- جميع احتمالات التناقض والاختلاف، طبقاً لمبدأ عدم التناقض والاختلاف الذي قدمه القران نفسه حجة ودليلاً على صدوره عن الذات المقدسة المحيطة بالقران كله بحيث لايجوز ان يفوتها ادنى خلل في ابداع هذه المعجزة لان الكمال المطلق لا يصدر عنه الا الكمال. قال تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) (النساء:٨٢).

الثانية:البيانية الشاملة لكل شيء،لأن ((في القران تفصيل كل شيء،لأنه يحوي القواعد العامة للعقل والفهم وبصائر التفكير الأساسية))[2] .فالقران اللفظي التدويني، ينطبق على الكتاب التكويني: الوجود الخارجي بشهادة قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ)(النحل: من الآية٨٩). فإذا كان القران يمتاز بقابلية الكشف العالية وجب ان يكون كاشفاً عن ذاته قبل ان يكون كاشفا عن غيره، وبيان لذاته مقدمة كي يتحقق بيانه لما سواه.

---

[1] ينظر: افاق التفسير الموضوعي في القران الهجري الأخير- إبراهيم سجادي- مجلة الحياة الطيبة- بيروت- ٢٠٠١م: ص١٨٨.

[2] في رحاب القران- محمد تقي المدرسي:٤٢ .

فينبغي إن يستهدي المفسر بأنوار القران وكشوفاته في بيان معاني الآيات والكلمات من خلال مقارنة الجمل والكلمات في الآيات المشابهة لها في المنطق والمفهوم[١].

ان التفسير في هذا البحث يشمل المعاني القرآنية للألفاظ والجمل[*]، بالقران نفسه سواء كان المعنى حقيقة أو مجازاً، وبهذا التعميم الدلالي للمعنى يخصص تأويل القران ببيان المصاديق الخارجية التي ينطبق عليها المعنى القرآني[٢]، فيكون التأويل مرحلة تالية للتفسير لا يقف عندها البحث، بل سيتجه إلى الجهود التفسيرية التي انتهجت هذا المنهج، فيقتبس منها ما يقوي البحث ويثري محتواه متوخياً الدقة العلمية ومتوسلاً بمعطيات عمليات التفسير القرآني الشاملة للأنماط الآتية:

١_التفسير التجزيئي (سورة بعد سورة).

٢_التفسير الموضوعي .

٣-التفسير البياني.

٤- التفسير البنائي.

غير إن البحث لا يتجاوز حدود بيان دلالات الكلمات والجمل، وان افاد من أبحاث التفسير الموضوعي، ولذلك فهو يعمل على:

* الثقة والاطمئنان العالي بمرجعية القران التفسيرية وحجيته العظمى.

* طهارة التفسير من الأفكار الشخصية والآراء الذاتية.

---

[١] ينظر:مفاهيم القران- جعفر السبحاني:٣/٢٧ .

[*] المراد بالجملة القرآنية: الجملة البسيطة المؤلفة من عناصرها الأساسية.

[٢] ينظر:المدرسة القرآنية ص٢٩٥: عبر عنه محمد باقر الصدر بتفسير المعنى، وهو((تجسد المفاهيم في صورة معينة محددة)).

* ان ينتخب الظواهر القرآنية والألفاظ الغامضة أو المشكلة أو المبهمة كما تبدو في ظاهر الاستعمال القرآني.

* ان يحدد النصوص القرآنية ذات الظهور لتكون أداة لغوية تفسيرية كما حددها المفسرون.

او يضيف نصوصاً تفسيرية مقاربة... فلا يستعين بأضواء بيانية خارجية وان جرى في إطاره العام على الأصول اللغوية العامة.

* ان يقيم مقارنات تفسيرية بين مواضع الغموض والإشكال في المعاني القرآنية ومواضع الكشف في النصوص القرآنية من خلال اكتشاف الروابط اللغوية والروابط والعلاقات الدلالية بين لغتي النص الغامض والنص الكاشف كي تتضح الدلالة إلى ابعد حد ممكن من الوضوح.

ويحاول البحث ان يتحرك خطوة بعد أخرى مستهدياً في مساره بما يتجلى له من أنوار قرآنية تحدد له المساحة التي يتحرك فيها معتصماً في حركته بحق القران وعصمته لينجو من زلات القلم وخطوات إبليس اللعين وان لا يتبرج بجماليات تزينها النفس الإمارة بالسوء او أفكار غريبة عن القران العظيم.

ويحرص الباحث ان ينحت من معطيات القران البيانية خريطة واضحة عامة يؤسس عليها بناءه الكلي، وان يتجنب- ما أمكنه التوفيق- التكرار والإطناب في معالجة موضوع التفسير بالقران.

استعين بقوة الله- تعالى- لتحقيق ما يسعى أليه البحث ومنه- تبارك- استمد النور والتوفيق إلى الوصول إلى الحقيقة.